الاتصال والانفصال بين الدين والاخلاق

أ- الاتصال بين الدين والاخلاق

إن المكانة التي أفردها الإسلام لمفهوم مكارم الأخلاق لا يدانيها مكانة أخرى، فالأخلاق هي المعيار الاساسي للتفاضل بين الناس.

"وقد ورد الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق الله على أن الغاية من رسالة الإسلام هي تعليم الناس كيف يمارسون مكارم الأخلاق في حياتهم اليومية وسائر أنشطتهم الفردية والاجتماعية . فلا غرو أن يكون الأنبياء والمرسلون هم خير الناس أخلاق وأحسن أم أدباً في التعامل مع الآخرين.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أدبني ربي فأحسن تأديبي، ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين".

كذلك ورد في القرآن الكريم من الثناء على الرسول (صلى الله عليه وسلم) قول الحق تعالى (: وأنك لعلى خلق عظيم) .

معنى هذه الآية، يفسرها الحديث الشريف الذي رواه مسلم عن سعيد بن هشام انه سأل السيدة عائشة (ضي الله عنيا)عن خلق رسول الله فقالت ألست تقرأ القرآن ؟ فقال: بلى . قالت: فان خلق رسول الله كان القرآن.

وورد في تفسير الإمام النسفي لقول السيدة عائشة: "كان خلقه القرآن " أي ما فيه من مكارم الأخلاق.

ونلاحظ أن مكارم الأخلاق في القرآن الكريم يدور حول الأوامر والنواهي، أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى أن العبادات الإسلامية في دلالاتها الجوهرية إنما هي تكريس للقيم الخلقية العملية، فإن أداء فرائض الصلاة والصوم والزكاة والحج لا تكون مقبولة عند الله ما لم تؤد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والى التحلى بمكارم الأخلاق.

ويؤكد هذا قوله سبحانه وتعالى (: كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) أي ان افضلية الأمة الاسلامية وخيريتها تتجلى في مدى التزامها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والمعروف: هو كل ما تعارف الناس في مجتمع ما على نفعه وفائدته فالتزموا به وجعلوه قبلة أعمالهم.

والمنكر: فهو ما أجمع الناس على إنكاره باعتباره نقيضاً للعرف الذي يوافقوا عليه.

وهذا يقودنا إلى العلاقة بين أخلاق الدين وأخلاق العرف، فهل هناك صلة بين الأخلاق القائمة على العرف؟ بل هما شيء واحد، أم يمكن أن ينفصلا ؟

أمر الإسلام باحترام العرف لأن مفهوم العرف يشمل كل ما يخالف المنكر ويناقضه، فهو العرف المنسجم مع مبادئ الإسلام وتعاليمه.

ويؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى: (خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين) يقصد من الآية: ان الاسلام ابقى الفضائل التي كانت من العرف الجاهلي مثل الشجاعة، الكرم، اغاثة الملهوف ونصرة الضعيف، اكرام الضيف الى غير ذلك، لكن من جهة اخرى فان الاسلام رفض اعرافاً وعادات جاهلية تناقض مبادىء الاسلام وتعاليمه مثل العصبية القبلية، الاخذ بالثأر وشرب الخمر ووأد البنات وانتهاك الحقوق الى غير ذلك، وما يقال في الإسلام لجهة علاقته بالعرف، فهو ينطبق على سائر الديانات السماوية، كاليهودية والمسيحية، إذ كانت الرسالات السماوية تراع الأعراف المائدة في المجتمعات البشرية شرط ألا تخالف هذه الأعراف تعاليم الدين.

وبهذا المعنى تصبح الأعراف والأخلاق وتعاليم الدين ذات مفاهيم متقاربة إلى حد التطابق أحياناً.

انفصال الأخلاق عن الدين

يتبين لنا من دراسة القواعد السلوكية لدى بعض المجتمعات البشرية، أن المفاهيم الأخلاقية يمكن أن تنأى عن الدين أو تخالف تعاليمه في بعض الأحوال عندما يطغى العرف الاجتماع المنحرف على التعاليم الدينية، أو عندما تخضع القواعد السلوكية لنوازع النفع المادية وشهوات الانفس الأمارة بالسوء .وكمثال على ذلك أخلاق الربا التي تنخر المجتمعات البشرية وتستنزف الأفراد والجماعات، حيث تشتمل على أنواع كثيرة لا تحصى من المعاملات والنشاطات الاقتصادية المتفرعة عن تطبيق الربا، حتى أصبح مفهوم الربا خلقاً يومياً يتبعه الناس في معاملاتهم وسلوكهم سواء عن وعى أو جهل بما يفعلون .ففي هذه المعاملات تخضع العلاقات بين الناس لأخلاق الربا طمعا في النفع المادي، ورغبة في الربح المادي السريع على حساب الآخرين .وقد شدد الإسلام في تحريم الربا، قال الحق تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يقَومُونَ إِلاَّ كَمَا يقَومُ الَّذِي يتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنهَمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرّبَا ﴾ وعن ابن مسعود قال :لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه ومن المشاهدات التي تظهر طغيان العرف على تعاليم الدين، ما نراه في بعض المجتمعات الإسلامية لجهة التغالي في المهور، مع أن السنة النبوية تدعو إلى تيسير مهر المرأة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله" :أن أعظم النساء بركة أيسرهن صداقاً وقوله" من يُمن المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها"

وكذلك يطغى العرف في بعض البلدان العربية على الحكم الديني في ما يعرف بـ "جرائم الشرف "حيث تتساهل المحاكم في الحكم على القاتل وتمنحه الأسباب التخفيفية خلافاً لأحكام الحدود الإسلامية في مثل هذه الجرائم.*

وقد نجد اعرافاً وعادات وتقاليد متبعة في بعض البلدان الإسلامية ما أنزل الله بها من سلطان، ومنها على سبيل المثال، الزواج العرفي، واللجوء إلى السحر والعرافين لقضاء الحوائج ومعرفة المستقبل ، الخ، وأمام هذه الحالات التي تشهد انقطاع العلاقة بين الدين والأخلاق هناك من المفكرين المحدثين من ينفي وجود أية صلة بينهما.

ومن المحدثين من ينفي وجود أية صلة بينهما. ويرى هؤلاء أنه "ليس ضروريا أن نعتقد وجود أفكار ميتافيزيقية لها صلة بما هو أخلاقي، بل إنه من الممكن إيجاد أخلاق بدون الإستناد على أي مبدأ ديني، ومن هؤلاء المفكرين "أوغست كونت" الذي نادى بضرورة الفصل بين "الأخلاق والدين" ولكنه يرى أن ثمة علاقة بين الأخلاق والعرف وبستنتج من ذلك أن العرف أيضا لا علاقة له بالدين.

كذلك يرفض عالم الاجتماع الفرنسي "إميل دوركلم" وجود علاقة ل لأخلاق بالدين ويرى ان وظيفة الدين تقتصر على حماية الأخلاق. وإذا أردنا أن نماشي آراء هؤلاء المفكرين الغربيين في ماهية الأخلاق، بلغنا الرأي الأكثر تطرفا مع الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه" الذي نفي وجود الأخلاق المستمدة من القيم والمبادئ والمثل العليا والفضائل الإنسانية، وزعم أن الأخلاق تستند على قانون البقاء للأقوى، وأن البشر الأقوياء هم الأناس الطيبون وهم أرفع وأرقى بموجب مكانتهم السامية، ولهم، وحدهم، الحق في خلق القيم وتحديدها. أما ما يدعيه الضعفاء من التزام مكارم الأخلاق فإنما هو تعبير عن شعورهم بالضعف واستسلامهم لعجز الحاقد على الأخرين.

وعلى أي حال فإن علاقة الأخلاق بالدين أمر ثابت، وما دعوة هؤلاء إلى فصل الأخلاق عن الدين سوى اعتراف ضمنى بوجود هذه العلاقة.

المفاهيم الأخلاقية بين التفسير الدينى والتفسير المادي

إن التعمق في فكرة العلاقة بين الدين والأخلاق يثير في الذهن الكثير من الأسئلة: هل يمكن اعتبار الأخلاق والدين مفهومين مستقلا أحدهما عن الآخر، ولكنهما منسجمان، ويحق قان الأهداف عينها؟ إذا كانت الأخلاق نابعة من الدين، تحمل مبادئه وتحق ق تعاليمه، فما هي طبيعة الأخلاق التي لا تتبع من

الدين وقد نحدها عند أناس غير متدينين؟ هل هناك ثوابت ومتغيرات في المفاهيم الأخلاقية وكيف يمكن تحديدها؟ وما هو دور الواقع في تحديد هذه المفاهيم الأخلاقية؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة ت تحد د في ضوء واحد من اتجاهين فكريين رئيسين: الاتجاه الروحي الديني، والاتجاه المادي النفعي. ذلك أن آراء المفكرين على اختلافها في شأن الأخلاق، تتحصر في هذين الاتجاهين.

فمنهم من يرى أن الدين هو منبع الأخلاق والقيم، بينما يرى أتباع المذهب الآخر أن المفهوم الأخلاقي ينبع من الدوافع المادية الهادفة إلى تلبية الشهوات والمنافع الدنيوية.